اختلاف اللغات واللهجات بين مشاهد الربوبية وموارد السخرية (دراسة عقدية لاختلاف الألسن في القرآن ودلالاته الإيمانية)

أ.ماجد بن مُحَّد بن عايض النفيعي

باحث ماجستير في تخصص (العقيدة والدعوة) – قسم الشريعة والدراسات الإسلامية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة الملك عبد العزيز.

Difference of languages and dialects between the views of deism and ridicule: a doctrine study of the difference of tongues in the Holy Qur'an and its faith significances

Mr. Majid ben Mohammad ben Ayedh Alnafe'i
An MA Student, Dawah and Doctrine, Department of Sharia and Islamic Studies, Faculty of Arts and Human Sciences, King Abdulaziz University

ملخص البحث:

يهدف بحث اختلاف اللغات واللهجات بين مشاهد الربوبية وموارد السخرية؛ إلى توجيه النظر إلى آية قرآنية وسنة إلهية في الخلق الإنساني، ومشاهد القدرة والعظمة والرحمة فيه، وذلك من خلال عرض الدلالات الإيمانية لاختلاف الألسن في القرآن الكريم. وقد عرضت الدراسة لمفهوم اللغات واللهجات والعلاقة بينهما، وأساس التفاضل بين اللغات. ثم بيَّنت الدراسة الأصل القرآني لاختلاف الألسن والمعاني التي يحتملها، ودلالاته الإيمانية، من خلال تتبُّع كلام المفسرين وإشاراتهم. ثم انتقلت الدراسة إلى ذكر الآثار العقدية والتشريعية المترتبة على الدلالات الإيمانية لاختلاف الألسن في القرآن، وما يتفرع عنها من الأحكام، مع ملاحظة التأكيد على خطورة السخرية باللغات واللهجات؛ لكونها من آيات الله العظيمة في الخلق. ثم ختمت الدراسة بأهم النتائج والتوصيات، ومن أبرزها: لفت الأنظار إلى طلب فقه السنن الإلهية، وما تنطوي عليه من دلائل الربوبية والألوهية، والوصية بالعناية بلغة القرآن تعلمًا وتعليمًا، مع التأكيد على أن البحث لا يدعو إلى امتزاج للغات يذيب خصوصيتها، ويفني آثارها في مقابل دعاوى التفاضل الوهمية، ومظاهر الاحتقار والسخرية.

Abstract:

This article aims to shed light on a Qur'anic verse and Sunna in human creation, and the views of ability, greatness and mercy. This is done through presenting the faith significances of the difference of tongues in the Holy Qur'an. The study presents the concept of languages and dialects and the relationship between them, and the basis of such differentiation. It also pinpoints the Qur'anic basis of the difference of tongues and the meanings they carry, through tracing the interpreters' opinions. The study then proceeds to clarify the doctrine and legislative effects and the subsequent significances in the Holy Qur'an, as well as the resultant provisions, emphasizing the danger of ridicule of languages and dialects. Languages and dialects are sacred signs of Allah in creation. It concludes with the most important findings and recommendations: drawing the attention to deeply probe the heavenly signs and their heavenly significances. It is important to take care of the language of the Holy Qur'an. The research does not call for mixing languages so not to dissolve their specific properties, eliminating their effects vis-à-vis fake claims of differentiation, contempt and ridicule.

الكلمات المفتاحية: اللغات، اللهجات، القرآن، الربوبية، الإيمان، السخرية.

Keywords: languages, dialects, the Holy Qur'an, deism, faith, ridicule

المقدمة:

الحمد لله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأنزله بفضله وإنعامه بين الخلائق منزل التكريم؛ علَّمه البيان المفصح عن حاجاته، ووهبه الجنان المرجّح بين حالاته.

والصلاة والسلام على أفصح الخلق لسانًا، وأتقاهم جنانًا، وأصدقهم برهانًا، وعلى آله وصحبه وكل تابع على سبيل القول والعمل؛ إسلامًا وإيمانًا وإحسانًا. أما بعد:

فهذا بحث مختصر نظمت فصوله في عقد الدلالات الإيمانية لمعنى اختلاف الألسن في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴿٢٢﴾﴾ [الروم ٢٢]، وما يتصل بها من الآثار التي توجب الإذعان لدلائل الربوبية وما يلزم عنها، والتوقِّي من دركات السخرية وما تفضي إليه، وسميته: اختلاف اللغات واللهجات بين مشاهد الربوبية وموارد السخرية.

أولًا– أهمية الموضوع: تتمثل أهمية الموضوع في الآتي:

١– كون الموضوع يتصل اتصالًا مباشرًا بدلائل ربوبية الخالق جل وعلا، وآثار قدرته وحكمته في صنعه، ولطفه ورحمته في تدبيره واختياره، وما توجبه من تجريد العبودية له سبحانه وتعالى، وامتثال أمره ونهيه، وهذا أعظم مقاصد القرآن.

٢– انحراف الفهم لموضوع اختلاف اللغات واللهجات عند كثير من الناس، وغفلتهم عما ينطوي عليه من المعاني العالية، والآيات العظيمة؛ فنزلوا به إلى قاع السخرية والاحتقار، وأوردوه موارد التفضيل بين طوائف الناس بغير دليل، إلا ما تهوى الأنفس وتألف.

ثانيًا– أسباب اختيار الموضوع:

١– أن اختلاف اللغات واللهجات وتوسعها؛ جزء لا ينفصل عن حقيقة الوجود الإنساني، مع وجود شاهده ومعناه في كتاب رب العالمين.

٢– أني لم أجد دراسة تناولت هذا الموضوع، بحسب بحثي وسؤالي واطلاعي.

ثالثًا– أهداف البحث: يهدف البحث إلى:

١– بيان حقيقة اختلاف اللغات واللهجات، والصلة بين نشأتها وتطورها.

٢– بيان معنى (اختلاف الألسن) في القرآن، وتتبع كلام المفسرين فيه، مع المقارنة.

٣– بيان الدلالات الإيمانية لاختلاف اللغات واللهجات، أخذًا من السياق القرآني، وكلام المفسرين والعلماء.

٤- بيان ما يترتب على الدلالات الإيمانية لاختلاف اللغات واللهجات من الآثار والأحكام.

رابعًا- منهج البحث:

- اعتمد البحث على (المنهج الاستقرائي الوصفي) في جمع المادة العلمية، واستخلاصها، وتوثيقها من مصادرها.

- كما اعتمد (المنهج التحليلي) للآية القرآنية، وبحث دلالاتها.

خامسًا- الدراسات السابقة:

لم أجد -بحسب بحثي واطلاعي وسؤالي- من خصَّ موضوع اختلاف اللغات واللهجات بالدراسة العقدية انطلاقًا من النص القرآني، مع توفُّر دواعيه ومادته ومصادره؛ لهذا عزمت على اختيار بحثه، ومعالجته معالجة قرآنية إيمانية.

هيكلة البحث (خطة البحث):

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة، على النحو التالي:

المقدمة: وفيها بيان أهمية الموضوع وأسباب اختياره وأهدافه ومنهجه وخطته.

تمهيد: اللغات واللهجات: المفهوم والتداخل – النشأة والتفاضل.

المبحث الأول: اختلاف الألسن في القرآن، ودلالاته الإيمانية. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: في المعاني التي يحتملها اختلاف الألسن في الآية.

المطلب الثاني: في الدلالات الإيمانية لاختلاف الألسن.

المبحث الثاني: ما يترتب على الدلالات الإيمانية لاختلاف الألسن من الآثار، وما يتفرع عنها من الأحكام. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار العقدية والفكرية.

المطلب الثاني: الآثار التشريعية والأخلاقية.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

مصادر البحث ومراجعه.

وبالله أعتصم من القول عليه بغير علم، ومن اقتحام مضائق الفكر بغير فهم، وأسأله صلاحًا في القصد، وسدادًا في العمل، هو حسبي ونعم الوكيل، عليه توكلت.

تمهيد: اللغات واللهجات: المفهوم والتداخل – النشأة والتفاضل

أ- المفهوم والتداخل:

اللغة ظاهرة إنسانية عامة، في المجتمعات البشرية كلها، وهي تتكون من أصوات منتظمة في كلمات منتظمة في جمل، لتأدية المعاني المختلفة.

وقد قدَّم كثير من العلماء المحدَثين تعريفات للغة، تختلف فيما بينها في بعض التفاصيل، ولكنها تتفق على أن اللغة: ذات طبيعة صوتية أولًا، ووظيفة اجتماعية ثانيًا، وأنها متنوعة بتنوع الأقوام والمجتمعات الإنسانية ثالثًا.

وهذه الأمور الثلاثة المتفق عليها هي نفسها جوهر التعريف الذي قدَّمه ابن جني سابقًا علماء اللغة المحدَثين بأكثر من ألف سنة، فقال(١): "اللغة: أصوات يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم"(٢).

وأما اللهجة؛ فهي مجموعة من الصفات اللغوية، تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة، أو يقال بعبارة أوجز: هي استعمال خاص للغة في بيئة معينة.

وهذه الصفات في أكثر الأحيان: صفات صوتية تتعلق بتدقيق مخارج الحروف، وكيفية نطقها، ووضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات، ومقياس أصوات اللين، وكيفية إمالتها، وكيفية التفاعل بين الأصوات المتجاورة حين يتأثر بعضها ببعض. فإذا تفشَّت هذه الصفات في بيئة جغرافية معينة؛ وسمت لهجة أهل هذه البيئة بما يميزها عن سواها من لهجات البيئات المجاورة.

وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، هي التي اصطلح على تسميتها باللغة. فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص؛ فاللغة تشتمل عادة على عدة لهجات، لكل منها ما يميزها، وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية، والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات(٣).

وفي سياق اصطلاحي؛ يقول الدكتور إبراهيم أنيس: "وقد كان القدماء من علماء العربية يعبرون عما نسميه الآن باللهجة بكلمة (اللغة) حينًا، و(باللحن) حينًا آخر ... وكثيرًا ما يشير أصحاب المعاجم إلى لغة تميم ولغة طيء ولغة هذيل، ولا يريدون بمثل هذا التعبير سوى ما نعنيه نحن الآن بكلمة (اللهجة).

ويظهر أن العرب القدماء في العصور الجاهلية وصدر الإسلام؛ لم يكونوا يعبرون عما نسميه نحن (باللغة) إلا بكلمة (اللسان)، تلك الكلمة المشتركة اللفظ والمعنى في معظم اللغات السامية شقيقات اللغة العربية. وقد يستأنس لهذا الرأي بما جاء في القرآن الكريم من استعمال كلمة (اللسان) وحدها في معنى (اللغة) نحو ٨ مرات"(٤).

وفي سياق علائقي يقول رحمه الله: "فلا بد أن تشترك لهجات اللغة الواحدة في الكثرة الغالبة من الكلمات ومعانيها، وفي معظم الأسس التي تخضع لها بنية الكلمات، وفوق هذا وذاك في تركيب الجمل.

فإذا اختلفت معاني معظم كلماتها، واتخذت أسسًا خاصة في بنية كلماتها، وقواعد خاصة في تركيب جملها؛ لا تسمى حينئذ لهجة، بل لغة مستقلة، وإن ظلت تتصل وغيرها بوشائج تجعلها تنتمي إلى فصيلة واحدة من الفصائل اللغوية"(٥).

فاللهجات إذًا فرع عن اللغات، تمثِّل صورة وجودها وامتدادها وتطورها في بيئات مختلفة، فما يتناول أصل اللغة يتناول فروعها؛ وهي هذه اللهجات التي تشكِّل وجوه أدائها، وطرائق التعبير عنها، والتفعيل الصوتي لها؛ المميز بين مجتمع وآخر، وبين فرد وآخر.

"ولا يكاد ينتشر استعمال لغة حتى تتعدَّدَ لهجاتها، فتظهر لهجة الحضر إلى جانب لهجة الريف، وتتميز لهجة الشمال من لهجة الجنوب.

واللهجات وليدة ظروف مختلفة: جغرافية واقتصادية، سياسية واجتماعية"(٦).

بقي أن نشير إلى قضية التمييز بين النظام اللغوي الموحِّد بين الناطقين به، ولغة الفرد الواحد المميزة له؛ فقد وضع لها (دو سوسور) مصطلح (اللغة والكلام)، ويعني به بشكل عام: التمييز بين اللغة والنطق(٧).

ب- النشأة والتفاضل:

لقد شغلت قضية نشأة اللغة الإنسانية المفكرين على مر العصور، وتصدى للبحث عنها كثير من العلماء، والفلاسفة، والمتكلمين(٨)، واللغويين.

ولقد بُذلت جهود كثيرة، وأجريت تجارب متعددة لكشف هذه القضية، فلم يُجمعوا على قول واحد، بل ذهبوا في البحث مذاهب شتى، وتوصلوا إلى نظريات عديدة أشهرها أربع نظريات:

الأولى: نظرية التوقيف والإلهام:

وخلاصة هذه النظرية عند القائلين بها؛ أن اللغة الإنسانية إلهام، ووحي من الله -عز وجل- لا يدَ للإنسان في وضعها؛ فهو أعجز من ذلك؛ فهي إذًا توقيفية لا مجال للاجتهاد فيها.

النظرية الثانية: نظرية التواضع والاصطلاح، أو يقال: المواضعة:

وتتلخص هذه النظرية في أن اللغة مواضعة واتفاق بين الناس؛ بحيث يصطلحون على كذا وكذا من الألفاظ.

النظرية الثالثة: نظرية المحاكاة والتقليد:

وتتلخص هذه النظرية بأن نشأة اللغة بدأت محاكاةً للأصوات الطبيعية، وتقليدًا للأصوات المسموعة؛ من الحيوانات والأشجار وصوت الرعد وغيره.

النظرية الرابعة: نظرية الغريزة الكلامية:

وهي إحدى النظريات الحديثة، وترى أن الإنسان مزوَّد بغريزة خاصة كانت تحمل كل إنسان على التعبير عن كل مُدْرَكٍ حسي أو معنوي بكلمة خاصة، ولذا اتحدت المفردات والتعابير عند الإنسان الأول(٩)، وأنه بعد نشأة اللغة لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة؛ فانقرضت.

هذه هي أشهر النظريات حول نشأة اللغة، وهناك نظريات أخرى حاولت حل هذه المشكلة، ولكنها لم تصل بالموضوع إلى نهاية يُوْقَفُ عندها(١٠).

يقول الدكتور مُحَّد الحمد: "هناك محاولة للتوفيق بين هذه النظريات؛ إذ أن كلاًّ منها يحتمل شيئًا من الصواب، ويتوجه إليه اعتراض. فلو جمعنا النظريات، وأخذنا الجانب الإيجابي من كل منها دون إغفال لنظرية أخرى؛ لربما أمكن الوصول إلى تصور أفضل.

فمما لا شكَّ فيه أن الله -تعالى- علم آدم -عليه السلام- الأسماء، ولو تركنا البحث والخلاف في معنى الأسماء، وتصورنا قدرًا من اللغة تعلمه آدم وأولاده من بعده ثم ذريتهم، وأضفنا إلى ذلك أن الله -عز وجل- قد وهب الإنسان قدرة على التعبير عما في نفسه؛ فذلك الجهاز المسمى بجهاز النطق، وذلك العقل المدبر المحرك للإنسان قادران على التعبير عما يستجد من أمور؛ إما عند طريق التقليد والمحاكاة -كما نرى في محاولات الأطفال- وإما عن طريق الاصطلاح كما يحدث كلما جدَّ جديد في الحياة وُضع له الاصطلاح المناسب. وبهذا يمكن الجمع بين النظريات جميعًا في تصور نشأة اللغة الإنسانية"(١١).

وسواء ذهبنا مذهب الجمع بين هذه النظريات، أو سلكنا طريق الترجيح بينها؛ فلن تخرج بجميعها عن التقدير الإلهي من الخالق العليم، الذي إن شاء ألهم الإنسان ملفوظه ومعناه، أو هداه إلى وضعه أو اقتباسه من أصوات بيئته وتعبيرها، أو دفعه بغريزة وضعها فيه ليعبِّر عن مدركاته.

فلسنا في حاجة إلى نظرية بعينها ليتحقق لنا معنى هذه الآية المحسوسة، وليصدق عندنا شاهدها على وجود الخالق، وتفرده بمعاني الربوبية المستلزمة للإذعان والتسليم، والعبودية والتعظيم، ونحن نرى الناس متفرقين على سنن متباينة في الكلام ولغاته وتوابعها، مع استواء أصل الخِلْقة والتركيب؛ فلا الخَلْقُ ضاق عن استيعاب هذا الاختلاف والتطور، ولا الحياة بضروراتها وعلائقها تعطَّلت واضطرب نظامها.

وينبغي أن نستحضر هذا المعنى في سياقنا الذي نريد؛ ونحن نناقش مسألة تفاضل اللغات؛ لئلا يخرجنا البحث فيها عن المقصود الأساس؛ وهو صدق آيتها على صنع العليم الحكيم، وما تودعه في النفس من العناية والتكريم.

على أننا لو أسلمنا زمام القول في باب التفاضل لفرسان النقل ومعانيه، وأساطين الخطاب ومبانيه؛ فلن نجد أثرًا لهذا التفضيل في غير مقامين:

المقام الأول: مقام (إطلاق) اقتضاه خطاب الشرع:

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: "فإن كانت الألسنة مختلفة؛ بما لا يفهمه بعضهم عن بعض؛ فلا بد أن يكون بعضهم تبعًا لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتَّبَع على التابع.

وأولى الناس بالفضل في اللسان: من لسانُهُ لسانُ النبي ﷺ.

ولا يجوز – والله أعلم – أن يكون أهل لسانه أتباعًا لأهل لسانٍ غيرِ لسانه في حرف واحد، بل كلُّ لسان تَبَعٌ لِلِسانه، وكلُّ أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه، وقد بيَّن الله عز وجل ذلك في غير آية من كتابه"(١٢).

ثم قال: "فعلى كل مسلم: أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ويتلوَ به كتابَ الله، وينطق بالذكر فيما افترض الله عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح، والتشهد، وغيرِ ذلك.

وما ازداد من العلم باللسان، الذي جعله الله لسانَ مَنْ خَتَم به نُبوَّته، وأنْزَلَ به آخر كتبه: كان خيراً له، كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها، ويأتي البيت، وما أُمِر بإتيانه، ويتوجَّه لما وُجِّه له، ويكون تبعًا فيما افتُرِض عليه، ونُدب إليه، لا متبوعًا"(١٣).

وقال ابن تيمية رحمه الله: "فإن نفس العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإنَّ فَهْمَ الكتاب والسنة فرض، ولا يُفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثم منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية"(١٤).

وأما قول الشافعي: "ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غيرُ نبيٍّ، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجودًا فيها من يعرفه"(١٥)؛ فهو معنى مخصوص في سياق مخصوص أراد به نقض دعوى من ادعى أن في القرآن غير لسان العرب؛ خلافًا لظاهر نصه، كما يُعلم من سباقه ولحاقه.

وإلا فقد قال ابن تيمية رحمه الله: "فإن اللغة الواحدة؛ كالفارسية، والعربية، والرومية، والتركية؛ فيها من الاختلاف والأنواع ما لا يحصيه إلا الله، والعرب أنفسهم؛ لكل قوم لغات لا يفهمها غيرهم"(١٦).

المقام الثاني: مقام (تقييد) هدى إليه التوسع في دراسة اللسان العربي في مناهجه ومدارجه، وانتهى إلى أقباس من أنوار فضله، وشرفه، وسلاسة بيانه، وعلو برهانه، واتساع ميدانه، دون اقتحام القول في غيره من ألسن الخلق ومآخذ لغاتهم بغير ميزان معتبر.

سأل أبو حيان التوحيدي شيخَه أبا سليمان المنطقي، فقال: "فهل من بلاغة أحسن من بلاغة العرب؟

فقال: هذا لا يبين لنا إلا بأن نتكلم بجميع اللغات على مهارة وحذق، ثم نضع القسطاس على واحدة واحدة منها، حتى نأتي على آخرها وأقصاها، ثم نحكم حكمًا بريئًا من الهوى والتقليد والعصبية والمين، وهذا ما لا يطمع فيه إلا ذو عاهة!

ولكن قد سمعنا لغات كثيرة من أهلها، أعني من أفاضلهم وبلغائهم، فعلى ما ظهر لنا وخُيِّل إلينا؛ لم نجد لغة كالعربية؛ وذلك لأنها أوسع مناهج، وأعلى مدارج، وحروفها أتمُّ، وأسماؤها أعظم، ومعانيها أوغل، ومعاريضها أشمل، ولها هذا النحو الذي حصته حصة المنطق من العقل، وهذه خاصة ما حازتها لغة على ما قرع آذاننا وصحب أذهاننا من كلام أجناس الناس، وعلى ما ترجم لنا أيضًا من ذلك"(١٧).

ولعل هذا الذي حدا بالدكتور صبحي الصالح أن يقول بعد استيفاء البحث في خصائص العربية، ودلائل علوها وأصالتها: "رأينا لغة العرب مرنة مطواعًا، لها من خصائصها في الاشتقاق، ومزاياها في التوليد، وأسرارها في الصياغة، وطرائقها في التعبير، ما يفي بترجمة روائع الفكر، ومبتكرات العلم، وبدائع الفن، وما يلبي مطالب الحياة والأحياء في الأنفس والآفاق.

ولم نزعم في هذا كله أن العربية كانت بدعًا من اللغات، ولم نذهب إلى تفضيلها عليهن أو على كثير منهن انسياقًا وراء عاطفتنا الدينية أو شعورنا القومي، ولم نصدق الأسطورة الخيالية التي تحيط العربية بشيء يسمو على الفكر، ويعلو عن السحر، ويكاد يلحقها بالمعجزات، ويراها لغة العبقرية أو يرى فيها عبقرية اللغات!

ذلك بأنه لا سبيل إلى تفضيل لغة على أخرى، وإنما يكون التفاضل بين الوسائل المتبعة لتنمية اللغات وإغناء تراثها التعبيري.

ولقد رأينا -في أكثر مباحث الكتاب- أن وسائل التنمية في العربية -على تنوعها وتعددها- آخذة في الزيادة والاتساع يومًا بعد يوم"(١٨).

المبحث الأول: اختلاف الألسن في القرآن، ودلالاته الإيمانية

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴿٢٢﴾﴾ [الروم ٢٢].

والبحث في دلالات اختلاف الألسن في الآية؛ ينتظمه مطلبان:

المطلب الأول: في المعاني التي يحتملها اختلاف الألسن:

قال ابن كثير: "وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، وهؤلاء فرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء تكرور، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بني آدم"(١٩).

ويضيف الماوردي وجهًا آخر يحتمله المعنى، فيقول: "والوجه الثاني: اختلاف ألسنتكم: النغمة والصوت حتى لا يشتبه صوتان من أخوين لأم وأب"[٢٠].

وهذا الوجه هو الذي عبَّر عنه الخطيب الإسكافي بقوله: "وأما اختلاف الألسنة؛ فالمراد أن آلات الكلام متقاربة، وأجراس الأصوات والنغم مختلفة، حتى ترى كل واحد من الناطقين مُخْتصًّا بلطيفة من الله تعالى في صوته وفي جرس لسانه، لا يخفى بها على من عرفه إذا سمع كلامه، والسمع يميز بينه وبين ما سواه قبل أن يراه ... وهذه اللطيفة لا سبيل إلى وصفها حتى يتهيأ وصف كل صوت بما يحصره على صاحبه، ويخصه بناطقه"[٢١].

ويزيده الزمخشري وضوحًا واتساعًا ليشمل اللهجات، فيقول: "الألسنة: اللغات، أو أجناس النطق وأشكاله. خالف عزَّ وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد، ولا جهارة، ولا حدَّة، ولا رخاوة، ولا فصاحة، ولا لكنة، ولا نظم، ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله"[٢٢].

ولهذا قال في المنتخب في تفسير القرآن الكريم[٢٣]: "واختلاف ألسنتكم في اللغات واللهجات".

أما ابن عثيمين؛ فيأخذ المعنى إلى ميدان أرحب، يتسع لكل المعاني التي يحتملها اختلاف الألسن، فيقول: "وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ يشمل أصل اللغة، ويشمل اللهجات، ويشمل السلامة من العيوب، ويشمل العيوب أيضًا، ويشمل الفصاحة، ويشمل العِيَّ؛ لأن بعض الناس يُعبِّر عن المعنى تعبيرًا يستطيع الإقناع إذا أراد أن يُقنع، ويستطيع التنفير إذا أراد أن ينفِّر، وبعض الناس عنده عِيٌّ؛ بحيث أنه لا يستطيع أن يُعبِّر حتى عن المعنى الصحيح، حتى أنه إذا عبَّر عن المعاني التي يريدها ربما لا تُقبل منه؛ لضعف تعبيره، يعني لا تظن أن اختلاف الألسنة فقط في جنس اللغة، لا بل بكل هذا، فأجناس اللغات من آيات الله عز وجل، وكون هذا الإنسان ينطق بالحروف نطقًا تامًّا؛ هذا من آيات الله، والثاني بالعكس؛ ينطق بها على وجه اللثغة أو يتثاقل، أو ما أشبه ذلك.

كذلك أيضًا قد نقول: إن من اختلاف اللسان: اختلاف الأصوات، فهذا صوته جيد، وهذا حسن، والآخر بالعكس.

كذلك من اختلاف الألسن الفصاحة وعدمها؛ فإن من الناس من يعطيه الله تعالى بلاغة في الكلام، وحُسْنَ أداء، حتى إنه يؤدي إليك المعنى بعبارة واضحة تفهما من أول مرة، ومن الناس من يكون بالعكس.

فجميع ما يمكن أن يَرِدَ على اختلاف اللسان؛ فإنه داخل في كونه من آيات الله عز وجل"[٢٤].

فتحصَّل مما أجلْنا الفِكَر فيه: أن اختلاف الألسن يحتمل كل المعاني المؤتلفة في حركاتها؛ من اللغات، واللهجات، والهيئات، والأصوات، والمعاني المتواردة عليها، وغير ذلك، حتى اختلاف اللسان الواحد في نفسه باختلاف حركاته، وما تنتجه من حروف مختلفة بهيئات متعددة، مع أنه واحد.

ولا يجد الناظر تضادًا بين هذه المعاني ليدفع الجُلّ بالواحد؛ فالكل متصل باللسان حسًّا أو معنى.

ولهذا تجد عامة المفسرين بين قصر المعنى على أظهر الوجوه؛ وهو اللغات، أو ذكر غيره معه من غير جزم أو ترجيح.

وأما جزم القاضي عبد الجبار بأن المعنى لا يتعدى "اختلاف خلقة الألسنة من قِبَله تعالى، ولأجل هذا الاختلاف يُدرك كلامهم مختلفًا؛ فمن كان في لسانه رِقّةٌ لا يكون كلامه بمنزلة كلام من في لسانه غِلَظٌ، وكذلك اختلاف منافذ الرياح والنَّفَس، فبيَّن تعالى أن في ذلك آية وعبرة"، وأن "هذا الجواب أولى من قول من يقول: إن المراد به اختلاف اللغات، وأنها من باب التوقيف"(٢٥)؛ فهو لدفع الاستدلال بها على توقيف اللغات، والمعتزلة تقول بالاصطلاح كما مر.

المطلب الثاني: في الدلالات الإيمانية لاختلاف الألسن:

وهنا نبحر في معنى الآية من طرف آخر، ونأخذ مع المفسرين جولة أخرى في ميدانها الفسيح، ونضم غيرهم إلى جولتنا فنبلغ بهم طرفًا من أسرارها الإيمانية ودلالاتها العقدية.

وإن معنى الآية ليأخذ بنا في طرق متعددة؛ كل طريق منها يوصلنا إلى دليل من دلائل الربوبية، ثم يعرج بنا في معراجه الإيماني، فمن هذه الدلائل:

أ- دلالة اختلاف الألسن على وجوده تعالى، وعظيم قدرته، ونفوذ مشيئته، وحكمته وعدله ورحمته:

قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة ٢١-٢٢]: " وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع تعالى، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى؛ فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية، واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها، ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة؛ علم قدرة خالقها، وحكمته وعلمه، وإتقانه، وعظيم سلطانه ... وحكى فخر الدين الرازي عن الإمام مالك؛ أن الرشيد سأله عن ذلك(٢٦)، فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات"(٢٧).

فأنت ترى الاشتراك في أصل الدلالة بين هذه الآية وآية الروم؛ فاختلاف أصناف الموجودات وتنوعها مع اتحادها في أصل التركيب، واتساق نظامها مع نظام الكون وشروط الحياة: دليل على وجود اللطيف الخبير، وتفرّده بالخلق والتدبير.

ومن أفراد هذا الدليل اختلاف اللغات والأصوات والنغمات، كما قال الإمام مالك رحمه الله.

وفي تلقِي اختلاف اللغات دليلًا على الربوبية وما يلزم عنها، يقول أبو الحسن الأشعري: "إن الله بعث محمدًا ﷺ إلى سائر العالمين، وهم أحزاب متشتتون وفرق متباينون ... لينبههم جميعاً على حَدَثِهم، ويدعوهم إلى توحيد المحْدِث لهم، ويبين لهم طرق معرفته بما فيهم من آثار صنعته، ويأمرهم برفض كل ما كانوا عليه من سائر الأباطيل.

بعد تنبيهه -عليه السلام- لهم على فسادها، ودلالته على صدقه فيما يخبرهم به عن ربهم تعالى بالآيات الباهرة والمعجزات القاهرة، ويوضح لهم سائر ما تعبدهم الله عز وجل به من شريعته.

وأنه -عليه السلام- دعا جماعتهم إلى الله، ونبههم على حَدَثِهم بما فيهم من اختلاف الصور والهيئات وغير ذلك من اختلاف اللغات، وكشف لهم عن طريق معرفة الفاعل لهم بما فيهم وفي غيرهم، بما يقتضي وجوده، ويدل على إرادته وتدبيره"(٢٨).

ويقول البقاعي: " ولما كان من الناس من ينسب الخلق إلى الطبيعة، قال تعالى ذاكرًا من صفات الأنفس ما يبطل تأثير الآفاق بأنفسها من غير خلقه وتقديره، وتكوينه وتدبيره: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ أي لغاتكم ونغماتكم وهيئاتها"(٢٩).

ويذهب ابن القيم في تفاصيل المعنى، فيقول: "واللسان الذي هو جارحةٌ؛ واحدٌ في الشكل والمنظر، وكذلك الحلق والأضراس والشفتان، والكلام مختلف متفاوت أعظم اختلاف، فالآية في ذلك كالآية في الأرض التي تُسقى بماء واحد، ويخرج من ذلك من أنواع النبات والأزهار والحبوب والثمار تلك الأنواع المختلفة المتباينة.

ولهذا أخبر الله سبحانه في كتابه أن في كلٍّ منهما آيات"، حتى قال: " ثم تأمل اختلاف هذه النغمات، وتباين هذه الأصوات، مع تشابه الحناجر والحلق والألسنة والشِّفاه والأسنان، فمن الذي مَيَّز بينها أتم تمييز مع تشابه محالِّها سوى الخلَّاق العليم؟!"(٣٠).

فقضية المعنى؛ أنكم -بني الإنسان- "يجمعكم نوع واحد وهو الإنسانية، وفصل واحد وهو الناطقية، حتى صرتم متميزين في ذات بينكم لا يلتبس هذا بهذا، بل في كل فرد من أفرادكم ما يميزه عن غيره من الأفراد، وفي هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون، ولا يفهمه إلا المتفكرون"(٣١).

"وأيم الله إنه من غرائب صنعه؛ فَلِكُلٍّ لغة ...، ولو تكلم صاحب لغة بلُغته من مبدأه إلى منتهاه بحكايات مختلفة متميزة لتمكن منه، ولا يتَّحدُ كلامٌ بكلامٍ مع اتِّحاد ما رُكِّبَ منه"(٣٢).

"فمحل العبرة هو اختلاف مع اتحاد أصل النوع"[٣٣].

ويذهب ابن عاشور إلى نكتة عميقة في معنى الآية وارتباط أجزائها، فيقول: " وإذ قد كان أشرف ما على الأرض نوع الإنسان؛ قرن ما في بعض أحواله من الآيات بما في خلق الأرض من الآيات، وخص من أحواله المتخالفة لأنها أشد عبرة؛ إذ كان فيها اختلاف بين أشياء متحدة في الماهية، ولأن هذه الأحوال المختلفة لهذا النوع الواحد نجد أسباب اختلافها من آثار خلق السماوات والأرض؛ فاختلاف الألسنة سببه القرار بأوطان مختلفة متباعدة، واختلاف الألوان سببه اختلاف الجهات المسكونة من الأرض، واختلاف مسامتة أشعة الشمس لها؛ فهي من آثار خلق السماوات والأرض.

ولذلك فالظاهر أن المقصود هو آية اختلاف اللغات والألوان وأن ما تقدمه من خلق السماوات والأرض تمهيد له، وإيماء إلى انطواء أسباب الاختلاف في أسرار خلق السماوات والأرض"[٣٤].

وفي بيان علل هذا الاختلاف ومقاصده الدالة على بلوغ حكمته تعالى، ورحمته بالخلق، يقول الزمخشري: "ولاختلاف ذلك وقع التعارف، وإلا فلو اتفقت وتشاكلت وكانت ضربًا واحدًا لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطَّلت مصالح كثيرة، وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحِلْيَة، فيعروك الخطأ في التمييز بينهما، وتعرف حكمة الله في المخالفة بين الحليِ، وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد، وفُرِّعوا من أصل فذٍّ، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون"[٣٥].

وذلك كما يقول الرازي: "لأن الإنسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص؛ ليعرف صاحب الحق من غيره، والعدو من الصديق؛ ليحترز قبل وصول العدو إليه، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه، وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور، وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الأصوات، وأما اللمس والشم والذوق؛ فلا يفيد فائدة في معرفة العدو والصديق، فلا يقع بها التمييز"[٣٦].

ولهذا قال ابن سعدي: " وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وعنايته بعباده، ورحمته بهم أن قدَّر ذلك الاختلاف؛ لئلا يقع التشابه، فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب"[٣٧].

ثم إن "توسُّعَ اللغات بتوسع الحاجة إلى التعبير عن أشياء لم يكن للتعبير عنها حاجة؛ قد أوجب اختلافًا في وضع الأسماء لها، فاختلفت اللغات بذلك في جوهرها كما اختلفت فيما كان متفقا عليه بينها باختلاف لهجات النطق، واختلاف التصرف"[٣٨]، ولا ريب أن الخلَّاق العليم هو الذي أقدر جنس الإنسان على هذا التوسُّع في اللغات مع توسُّع حاجاته؛ رحمة منه ورعاية وفضلًا، فله المحامد كلها بكل لسان ناطق.

ب- دلالة اختلاف الألسن على إمكان البعث:

مع أن سياق الآية وسباقها ولحاقها؛ ناطقٌ على تقرير هذا المعنى، إلا أننا نجد تأكيد هذا المعنى حاضرًا في كلام المفسرين وتقريرهم؛ لظهور شاهده، وعِظَم مقصده.

فنجد ابن جرير يفتتح الكلام على صدر الآية بقوله: " يقول تعالى ذكره: ومن حججه أيضًا وأدلته على أنه لا يُعجزه شيء، وأنه إذا شاء أمات من كان حيًّا من خلقه، ثم إذا شاء أنشره وأعاده، كما كان قبل إماتته إياه؛ خلقه السماوات والأرض من غير شيء أحدث ذلك منه، بل بقدرته التي لا يمتنع معها عليه شيءٌ أرادَه، ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾. يقول: واختلاف منطق ألسنتكم ولغاتها"[٣٩].

ويقول مكي بن أبي طالب: " ومن أدلته وحجته في قدرته على إحيائكم بعد موتكم؛ أنه خلق السماوات والأرض وهن أعظم خلقًا منكم فاخترعها وأنشأها، وجعل ألسنتكم مختلفة في الأصوات واللغات، وجعل ألوانكم مختلفة على كثرتكم، وهذا ألطف خلقًا من خلق أجسامكم، فأتى تعالى ذكره بتمثيل الخَلْق العظيم واللطيف"[٤٠].

وهذا كما يقول أبو السعود: "إما من حيث إن القادر على خلقهما بما فيهما من المخلوقات بلا مادة مستعدة لها أظهر قدرة على إعادة ما كان حيا قبل ذلك، وإما من حيث إن خلقهما وما فيهما ليس إلا لمعاش البشر ومعاده"[٤١].

ثم لنأخذ في تقرير هذا المعنى طريقًا أخرى؛ فنصله بقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ۝٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ۝٢١﴾ [فصلت ١٩-٢١]، فـ"من مشاهد يوم القيامة: نُطْقُ الأيدي والأرجل والجوارح والأعضاء بالشهادة، وفي هذا تتجلى قدرة الله، وتبرز عظمته في شيء غير معهود لمألوف الناس، فمن باب أولى أن تكون قدرة الله مُستحضَرة في النفوس أكثر؛ فالذي أنطق اللسان سبحانه، وهيأ المخارج للحروف، وأعطاها القدرة على النبرات والأصوات، من أول مرة؛ مستحق سبحانه وتعالى لكمال الفضل والإنعام، وإخلاص العبادة والخضوع، وقادر على إعطاء هذه الصفة لأشياء أخرى"[٤٢].

فمن كان في شك من وقوع هذا المشهد وإمكانه، وانحصرت حدود قناعاته في عالم الحس ومشاهداته، قلنا له: وفي شاهد الحس دليل وبرهان؛ فإنك "لا تجد للحيوانات التي لم تُكلَّف بشرعٍ قدرةً على النطق، أو استطاعة على التعبير، رغم أن ألسنة بعضها وأفواهها أكبر من ألسنة البشر، وأوسع من أفواههم. ولكنها حكمة الله جل وعلا، التي خص بها الإنسان، وخاصيَّة فضَّله الله بها، وهذا واحد من الأدلة الفعلية التي نبَّهت الآية الكريمة العقول إليها، وأمرٌ من الله بإعمال الفكر؛ ليتمعَّن ويستخرج العبرة"[٤٣].

فالذي خلق الألسن ثم فَرَق أهلها؛ فمنهم ناطق ومنهم غير ناطق، ثم ميز أهل النطق من بعضهم بلغات وهيئات وأصوات تُمِيِّز بين جماعاتهم وبين أفرادهم .. ألا يكون قادرًا على أن يودع النطق في أي محل شاء من خلقه؟ فالكل خَلْقُه، والأمر إليه من قبل ومن بعد.

المبحث الثاني: ما يترتب على الدلالات الإيمانية لاختلاف الألسن من الآثار، وما يتفرع عنها من الأحكام، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار العقدية والفكرية:

ظهر مما تقدَّم؛ أن اختلاف الألسن آية من آيات الله الناطقة بربوبيته وألوهيته، الشاهدة على قدرته ونفوذ مشيئته، الدالة على بلوغ حكمته، وسعة رحمته. وهذه أعظم آثارها التي تقصد بيقين الناظر فيها ثلاث جهات:

الجهة الأولى: أن اختلاف اللغات واللهجات، وهيئات الكلام والأصوات دليل من أدلة التوحيد الحسية، التي تثبِّت جذوره في القلب، وترسل فروعه الطيبة حتى تلقي بثمارها على لسان العبد وجوارحه، فتراه لا ينقض عرى الإيمان، ولا يبرح مواضع الإحسان، وهذا لمن وهبه الله هداية وتوفيقًا.

الجهة الثانية: أن ما تعارفت عليه طوائف من الخلق، وتجارى بألسن كثير منهم؛ من احتقار اللغات، والسخرية بأنواع من اللهجات، وإنزال أهلها عن محلهم اللائق الذي أنزلهم الله إياه تكريمًا وتشريفًا واصطفاءً، فقال تعالى: ﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا۝٧٠﴾ [الإسراء ٧٠]؛ كل ذلك واقع في حقيقته موقع السخرية بآيات الله في خلقه، ودلائل الإحكام في صنعه، وشواهد القدرة والحكمة والرحمة في تدبيره.

ولا تقف خطورة المسألة، ولا ينتهي عمق شناعتها عند هذا الحد، فإن اختلاف الألسن بكل صوره داخل في: امتنان الله على خلقه، ومزيد إنعامه عليهم، بعد ذكر التكريم المتقدم.

قال تعالى وتقدَّس: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ۝٤﴾ [الرحمن ١-٤]. فامْتَنَّ على الإنسان بعد ذكر تعليم القرآن وبعد الخَلْق بنعمة تعليمه "البيان الذي يكون به التفاهم، ويدور عليه التخاطب، وتتوقف عليه مصالح المعاش والمعاد؛ لأنه لا يمكن إبراز ما في الضمائر، ولا إظهار ما يدور في الخَلَدِ إلا به"(٤٤).

قال الشوكاني: "والأولى حمل الإنسان على الجنس، وحمل البيان على تعليم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به"(٤٥)، " فالبيان الذي ميز الله به الآدمي على غيره من أجل نعمه، وأكبرها عليه"(٤٦)، والإنعام موجب للاعتراف والشكر والتعظيم، لا الاحتقار والسخرية والتذميم.

وأما قضية التفاضل بين الخلق، والتي قد تكون دافعًا إلى ولوج باب الاحتقار للغات، والسخرية بأهلها؛ إنما تُرَدَّ إلى ميزان التقوى ومعيارها بنص الشرع، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات ١٣]، والنبي ﷺ يقول في خطبته في وسط أيام التشريق: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبَلَّغتُ؟" قالوا: بلغ رسول الله[٤٧].

وإن المؤمن الذي تتحرك في خاطره معاني الربوبية، وآثار دلائلها في الأنفس والآفاق؛ ليتجافى عن موارد السخرية بالعظيم منها أو اللطيف، ويتباعد من مسالك الاحتقار لما يستغرب منها أو ينكر. حتى قال ابن مسعود ﷺ: "لو سخرت من كلب؛ لخشيت أن أُحَوَّل كلبًا"[٤٨]، فكان هذا المعنى حاضرًا في نظر ابن مسعود ﷺ وهو ينظر إلى حيوان أعجم نجس العين؛ فكيف بنظر الإنسان إلى إنسان مكافئ له في أصل الخلقة والتكليف والاصطفاء على بقية المخلوقات، ولا يُنصب بينهما ميزان التفاضل إلا باعتبار إيمان القلب، وما يُصدِّقه من عمل الجوارح؟!

فإن الله خلق الخلق متماثلين في: النشأة، والفطرة، والكرامة، والتكليف، والمسؤولية، والحياة، والموت، والبعث، والحساب، والجزاء إما إلى جنة أو إلى نار، كما نطق الكتاب العزيز بهذا[٤٩]. وشأن المؤمن التسليم لأمر الله القدري، والإذعان لأمره الشرعي، والسعي لاستصلاح خلقه، والإحسان إليهم بدعوتهم إلى دينه الحق، وتقريب سبل الخير الديني والدنيوي إليهم بحسب الوسع، لا أن يجاوز حدود المخلوقية، ويتعالى إلى ما يشبه دعوى الخالقية، فيقضي في الخلق بما أراه هواه، وما يعجبه من صورهم وألوانهم ولغاتهم: تقريبًا وإبعادًا، وإنعامًا وإسخاطًا، ومدحًا وذمًّا.

الجهة الثالثة: أن احتقار اللغات، وردِّ اختلافها إلى قضية مختلقة يُرفع بها أقوامٌ، ويُخفَض بها آخرون؛ هو شأن أهل الضلالة في كل عصر.

قال حرب بن إسماعيل الكرماني، في ضمن ما نقل من إجماع السلف والأئمة في أمور المعتقد: "ونعرف للعرب حقَّها وفضلها وسابقتها، ونحبهم، ...، ولا نقول بقول الشعوبية، وأراذل الموالي الذين لا يحبون العرب، ولا يُقِرّون لهم بفضلٍ؛ فإن قولهم بدعة وخلاف"[٥٠].

ويربط الجاحظ بين الشعوبية وبين الانسلاخ من الإسلام، وردِّ الحقائق استجابة للأحقاد، فيقول: "وربما كانت العداوة من جهة العصبية، فإن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه، وطول الجدال المؤدي إلى القتال، فإذا أبغض شيئا أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة. فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وكانوا السلف والقدوة"[٥١].

والظاهر أن فكرة احتقار اللغات سابقة لظهور حركة الشعوبية بزمن طويل، فقد نقل أبو بكر الرازي عن كتاب جالينوس من قوله: "إن لغة اليونانيين أعذب اللغات وأطلقها، وأشبهها بلغة الألسن، وأشكلها لذوي النطق. وذلك أنه زعم بأن لغات ساير الأمم يشبه بعضها صياح الخنازير، وبعضها نقيق الضفادع، وهي مع ذلك ثقيلة سَمِجَة المخارج"(٥٢). ثم قال ناقضًا دعواه: "وليس هذا كلام مثله لو عرى عن الهوى والميل؛ فإن هذا كلام عوام الناس ومن لا يدري، إلا أن الألفاظ إنما تَخِفُّ وتعذب بالاعتياد، وأن لغة العرب عند العرب كلغة اليونانيين عندهم، وأن العرب تستثقل لغة الروم كما يستثقل الروم لغة العرب، وأن الإنسان يستثقل غير لغته، ويعسر عليه التكلم بها، حتى إذا كثر استعمالها خفَّت عنده بعد الثقل، وسهلت بعد العسر"(٥٣)

ويكشف لنا محمود شاكر عن معاندة عصرية ومبارزة مُحْدَثَة لسُنَّة اختلاف اللغات، فيقول: "فباطل كل البطلان أن يكون في هذه الدنيا على ما هي عليه (ثقافة) يمكن أن تكون (ثقافة عالمية)، أي ثقافة واحدة يشترك فيها البشر جميعًا، ويمتزجون على اختلاف لغاتهم ومِلَلِهم ونِحَلِهم وأجناسهم وأوطانهم؛ فهذا تدليس كبير، وإنما يُراد بشيوع هذه المقولة بين الناس والأمم؛ هدف آخر يتعلق بفرض سيطرة أُمة غالبة على أُمم مغلوبة ... فالثقافات المتباينة تتحاور وتتناظر وتتناقش، ولكن لا تتداخل تداخلًا يُفضي إلى الامتزاج البتَّة، ولا يأخذ بعضها عن بعض شيئًا إلا بعد عَرْضِه على أسلوبها في التفكير والنظر والاستدلال ..."(٥٤).

على أن نزعة الامتزاج المتطرف التي يتحدَّث عنها محمود شاكر، قد قابلتها في الطرف الآخر نزعة جمود أشدَّ تطرُّفًا؛ ولهذا يرى الدكتور مُحَمَّد مُحَمَّد حسين الخطر على القومية العربية من جهتين: "العصبيات المحلية التي يسعى دعاة التجزئة إلى بعثها وإحيائها، والتي تؤدي إلى التفتيت والتشتيت، والتي تفرِّق كلمة المجتمعين، وتجعل الإخوة أعداء متنابذين، والنزعة العالمية التي تؤدي إلى إفناء الشخصية العربية وإذابتها في مفهوم شاسع واسع يشملها ويشمل أعداءها على السواء"(٥٥).

وأجد الدكتور أحمد الزغيبي قد تنبَّه لبحث محرِّكات هذه الدعوات في العصر الحديث، ومصادر دوافعها في دراسته للعنصرية اليهودية، فقال بعد إشارة إلى تمكن اليهود من احتواء منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، ودوافعهم من ذلك: "ومن هنا نرى اهتمام اليهود بالتخصصات النادرة كـ(علم اللغات)، ففي (كلية سانت أنتوني) في (جامعة أكسفورد) البريطانية –مثلًا–: أستاذ (اللغة العبرية) يهودي، وأستاذ (اللغة الآرامية(٥٦)) يهودي، وأستاذ (اللغة الأكادية(٥٧)) يهودي، وأستاذ (اللغة السنسكريتية(٥٨)) يهودي، وهكذا"(٥٩).

فهذه حلقة إذا وصلناها بغيرها؛ أدركنا دوافع الحديث عن تخصيص لغات معيَّنة بكل المحاسن التي تعذُب في الحس، وتروق للفكر، والقذف بأخرى في مهاوي التحقير والانتقاص، بغير برهان صريح من الوحي، أو شاهد صادق من الحس.

المطلب الثاني: الآثار التشريعية والأخلاقية:

الإسلام هو دين الله الحق، ودعوته الخالدة إلى أن يرث الأرض ومن عليها؛ فلا بد إذًا أن يكون خطابه للناس أجمع، مع اختلاف لغاتهم وثقافاتهم، ولا بد أن تنسجم تشريعاته مع النظام الذي أودعه في الكون، والسنن التي أجراها فيه؛ ومنها اختلاف لغات الخلق المخاطبين بها.

وإذا كان الإسلام دعوة تجمع الخلق في طريق واحد، إلى إله واحد، بزاد واحد؛ فإنها لا تخوض في تفاصيل اختلاف طبيعي أجراه الله فيهم، فتصادره قهرًا. فكيف إذا كان هذا الاختلاف بتلك المنزلة من دلائل الربوبية، التي تقدَّم بحثها؟

والإسلام دعوة اجتماع وائتلاف، لا فرقة واختلاف؛ دعوة تنعش روح التعارف والتآلف، وتبثُّ روح التنافس في الخيرات بين كل أتباعه، وإنما السابق من سبق بالإيمان والعمل، فالله تعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات ١٣]. وأنت على ذكر من أنه تعالى قد قال قبلها بقريب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات ١١].

"ولا نجد عبر التاريخ مثالًا على التوحيد اللغوي أفضل من تجربة الحضارة الإسلامية مع اللغة العربية؛ فبالرغم من أن الإسلام لم يجبر أحدًا على اعتناق عقيدة معيَّنة، أو التحدُّث بلُغة معيَّنة، وبالرغم من أن الإسلام ضمَّ في إمبراطوريته الواسعة أغلب اللغات واللهجات المعروفة في العالم وقتذاك، إلا أن الإقبال على اعتناق الإسلام كان يحمل في طيَّاته إقبالًا على تعلُّم اللغة العربية، وحتى غير المسلمين قد اتخذوا من العربية لسانًا لهم"(٦٠).

ومع أن الإسلام أحلَّ اللغة العربية أشرف المنازل وأعلاها؛ فالله أنزل قرآنه بها، وأرسل نبيَّه من أشرف أعمدة العرب، وتعددت شواهد تقديم العربية على غيرها في تشريعاته، إلا أن هذا كان دعوة إلى توحيد الخلق على شعار واحد، ومظهر واحد، ولسان واحد في توجههم إلى ربهم، وقصدهم إليه. من غير أن يعلو تابع على تابع بغير سلطان، ومن غير أن يفارق المرء طبيعته التي خُلِق عليها وجُبِل، أو يتكلَّف ما لا يطيق.

والسلف وإن كانوا "يكرهون تغيير شعائر العرب حتى في المعاملات؛ وهو (التكلم بغير العربية) إلا لحاجة ... مع أن سائر الألسن يجوز النطق بها لأصحابها، ولكن سوغوها للحاجة وكرهوها لغير الحاجة، ولحفظ شعائر الإسلام؛ فإن الله أنزل كتابه باللسان العربي، وبعث به نبيه العربي، وجعل الأمة العربية خير الأمم، فصار حفظ شعارهم من تمام حفظ الإسلام"[٦١]. فالقضية إذًا حفظ شعائر الإسلام، وصيانة لغة القرآن من الابتذال والتغيير، مع رعاية الطبيعة الخاصة، والحاجة الداعية[٦٢].

وهذا من حيث الإجمال، وأما من حيث التفصيل؛ فإنك إذا أجلت النظر في فروع الشريعة وأبوابها؛ رأيت استصحاب قضية اختلاف اللغات والاعتداد بها في عدد من المسائل، فمن ذلك:

١- قول ابن قدامة مُصَحِّحًا قول من أجاز التكبير للصلاة بغير العربية، إذا لم يحسنها وخشي فوات الوقت: "لأن التكبير ذِكْرٌ لله، وذِكْرُ الله تعالى يحصل بكل لسان"[٦٣]، بل إن ذكر الله حاصل بما نعلم صورته وما لا نعلم، من ناطق وغير ناطق، بل من حيٍّ وغير حيٍّ، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء ٤٤].

٢- قول ابن المنذر: "وأجمعوا أن العجمي إذا طلَّق بلسانه وأراد الطلاق؛ أن الطلاق لازم له"[٦٤]، فلم تحجر الشريعة على غير ذي اللسان العربي في معاملاته وتعاقداته، بل إن الأمر موكول إلى قصده ونيته كالعربي سواء بسواء.

٣- قضية ترجمة معاني القرآن إلى غير العربية، والتي انتهى بحث العلماء فيها إلى جوازها بشروط تحول دون التعدِّي على قدسية القرآن، وأرادوا بذلك رفع النقاب عن جمال القرآن ومحاسنه لمن لم يستطع أن يراها بمنظار اللغة العربية من الأعاجم، تثبيتًا للمسلم، وتنويرًا لغير المسلم، ودفعًا للشبهات والشكوك، وقيامًا بواجب التبليغ[٦٥].

ثم إلى هنا منتهى القول والبحث، والله حسبي، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الخاتمة:

وفيها أهم النتائج والتوصيات

أحمد الله عز وجل على ما هدى إليه ووفَّق، وأسأله المزيد من فضله. ثم إني أطوي بساط البحث في هذا الموضوع برسم عدد من الإيضاحات والمهمَّات، فأقول:

- أن هذا البحث ينزع إلى طلب فقه السنن الإلهية في الكون، وما تنطوي عليه من دلائل الربوبية والألوهية، وهذا الباب من أعظم مفاتيح الإيمان، وأوضح سبل تحصيل الهداية لمن شاءها له الرحمن.

- ثم إن هذا البحث لا يدعو إلى امتزاج تذوب معه اللغات، ولا إلى مساواة من كل وجه تضعف معها لغة الوحي، ويضيع بناؤها في تضاعيف العجمة المستعارة. وإنما يدعو إلى وضع كل قول موضعه؛ فالإسلام فاتحٌ أبواب العربية لمن شاء أن يلج منها إلى فهم الوحي وامتثال معناه؛ فاللغة العربية أمينة على الوحي، تصونه وتعلو به، وهنا معقد شرفها، وأسُّ فضلها.

- عرَّف البحث بمفهوم اللغة، وما يتصل بها من اللهجات والأصوات، ثم عرَّج على نشأة اللغات والنظريات المفسِّرة لها، وسبيل الجمع بينها، ولم يهمل مسألة التفاضل بين اللغات.

- ثم أتى على لُبِّ المسألة؛ وهي المعاني الإيمانية لاختلاف الألسن في القرآن، فصال وجال في تقريرات المفسِّرين وإشاراتهم، وما أفاده كلامهم من اعتبار اختلاف اللغات واللهجات والأصوات شاهدًا على وجود الخالق، وعظيم صنعه، ولطف تدبيره.

- ثم اتصل الكلام بذكر الآثار المترتبة على الدلالات الإيمانية لاختلاف اللغات واللهجات والأصوات، وما ينبغي أن تورثه في نفس العبد من تعظيم الخالق وصنعه، وتجريد العبودية له دون من سواه، وأن يرى في آثار صنعه وتدبيره في الخلق دلائل إعجاز، ومشاهد إنعام، لا موارد سخرية واحتقار وابتذال.

- وإن كان من وصية؛ فإني أوصي نفسي وكل مسلم: بالعناية بلغة القرآن تعلُّمًا وتعليمًا؛ فهي الدليل إلى فهم الوحي، والسبيل إلى إدراك تفاصيل الشريعة، وأن يدرك أن أساس التفضيل لها شرعي ديني، وهو أساس جامع لكل من استسلم بقلبه وجوارحه لأمر الله، وتابَع مخلصًا رسوله المصطفى ﷺ، وتخلَّى عن أي هوى مُفْضٍ إلى قومية ضيِّقة، أو شعوبية زائغة، أو عنصرية جاهلية مُنْتِنَة.

والحمد لله رب العالمين.

هوامش البحث:

(١) الخصائص لابن جني، ١/ ٣٤.

(٢) فقه اللغة مناهله ومسائله، ص١٠.

(٣) في اللهجات العربية، ص١٥، مقدمة إبراهيم مدكور لكتاب لهجات العرب لأحمد تيمور، ص٧، فقه اللغة مناهله ومسائله، ص١٤.

(٤) في اللهجات العربية، ص١٥-١٦.

(٥) في اللهجات العربية، ص١٦-١٧.

(٦) مقدمة إبراهيم مدكور لكتاب لهجات العرب لأحمد تيمور، ص٧.

(٧) معجم الأفكار والأعلام، ص٤٣٥، مدخل إلى اللسانيات، ص٥٣-٥٧.

(٨) فقال جمهورهم: إنها توقيفية، وقال المعتزلة: إنها اصطلاحية، وتوسطت طائفة، وتوقفت عن القطع أخرى. انظر: البدر الطالع في حل جمع الجوامع، ١/ ٢١٩-٢٢١، البحر المحيط للزركشي، ٢/ ١٤ وما بعده، الإيمان الكبير، ص٢٨٤.

(٩) غير خافٍ عليك أخي القارئ؛ أن مصطلح (الإنسان الأول) وأشباهه = من مفرزات نظرية التطور الداروييني، وإنما مقصودنا هنا سرد النظريات المفسرة لنشأة اللغات توطئة لمقصود البحث الأساس.

(١٠) مقدمة في فقه اللغة للحمد، ص٢٢-٢٣، وانظر: فقه اللغة له، ص٥٥-٦٥ مع المصادر التي أحال عليها.

(١١) مقدمة في فقه اللغة، ص٢٣-٢٤، وانظر: فقه اللغة له، ص٦٤-٦٥.

(١٢) الرسالة، ٢/ ١٣٩.

(١٣) الرسالة، ٢/ ١٤٧-١٤٨. وانظر: فصول في أصول لعلم اللغة العربية، ص١٥-١٧.

(١٤) اقتضاء الصراط المستقيم، ١/ ٥٢٧-٥٢٨. وانظر: الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية، ص٢٣٣-٢٧٩، روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام، ١/ ٨٩-١٧٦، تحت راية القرآن، ص١٨، الأحاديث والآثار الواردة في فضل العربية، ص٢١-١٥٢.

(١٥) الرسالة، ٢/ ١٣٣-١٣٤. وانظر: مقدمة أحمد شاكر لكتاب (المعَرَّب) للجواليقي، ص١١-١٤.

(١٦) الإيمان الكبير، ص٢٨٦.

(١٧) المقابسات لأبي حيان التوحيدي، ص٢٩٣-٢٩٤.

(١٨) دراسات في فقه اللغة، ص٣٦٢-٣٦٣.

(١٩) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٨٩. وانظر: تفسير القرآن لعزيز لابن أبي زمنين، ٣/ ٢١٨-٢١٩، معالم التنزيل، ٣/ ٤٩١، البسيط للواحدي، ١٨/ ٣٥، الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ٤١٣.

(٢٠) النكت والعيون، ٤/ ٣٠٦. وانظر: تفسير السمعاني، ٤/ ٢٠٤-٢٠٥.

(٢١) درة التنزيل وغرة التأويل، ٢/ ٩٧٩-٩٨٠.

(٢٢) الكشاف، ٣/ ٢٠١. وانظر: تفسير البيضاوي، ٤/ ٢٠٤، تفسير النسفي، ٣/ ٢٦٩، نظم الدرر للبقاعي، ١٥/ ٦٩.

(٢٣) ص٧١٥.

(٢٤) تفسير سورة الروم، ص١١٩-١٢٠.

(٢٥) تنزيه القرآن عن المطاعن، ص٢٧٦.

(٢٦) أي: عن وجود الرب تعالى.

(٢٧) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٣٠٠. وانظر: تفسير المراغي، ٢١/ ٣٨، التفسير المنير، ٢١/ ٧٠.

(٢٨) رسالة إلى أهل الثغر، ص١٣٦-١٤٣.

(٢٩) نظم الدرر، ١٥/ ٦٩.

(٣٠) مفتاح دار السعادة، ٢/ ٧٦٣، ٧٦٥.

(٣١) فتح القدير للشوكاني، ٤/ ٥٣.

(٣٢) جامع البيان للأيجي، ص٧٣٠.

(٣٣) التحرير والتنوير، ٢١/ ٧٤.

(٣٤) التحرير والتنوير، ٢١/ ٧٣.

(٣٥) الكشاف، ٣/ ٢٠١.

(٣٦) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ٩٢. وانظر: تفسير المراغي، ٢١/ ٣٨-٣٩.

(٣٧) تيسير الكريم الرحمن، ٣/ ١٣٣٢.

(٣٨) التحرير والتنوير، ٢١/ ٧٤.

(٣٩) تفسير الطبري، ١٨/ ٤٧٩.

(٤٠) الهداية إلى بلوغ النهاية، ٩/ ٦٧٦.

(٤١) تفسير أبي السعود، ٧/ ٥٦.

(٤٢) وفي أنفسكم أفلا تبصرون، ١/ ٥٦.

(٤٣) وفي أنفسكم أفلا تبصرون، ١/ ٥٤-٥٥.

(٤٤) فتح القدير، ٥/ ١٥٨.

(٤٥) فتح القدير، ٥/ ١٥٨.

(٤٦) تيسير الكريم الرحمن، ٤/ ١٧٥٢.

(٤٧) مسند الإمام أحمد، (٢٣٤٨٩).

(٤٨) صفة الصفوة، ١/ ١٩١.

(٤٩) العنصرية اليهودية، ٤/ ٨-١٤.

(٥٠) معتقد أهل السنة والجماعة كما نقله الإمام حرب بن إسماعيل الكرماني، ص٨٤-٨٨.

(٥١) الحيوان، ٧/ ٢٢٠، وانظر: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، ص٧٤-٨٣، الشعوبية والزندقة، ص١٥-٢١، الزنادقة، ١/ ١٨٢-١٩٠.

(٥٢) كتاب الشكوك للرازي، ص٢١٥.

(٥٣) كتاب الشكوك للرازي، ص٢١٦.

(٥٤) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص٧٤-٧٥. وانظر: حصوننا مهددة من داخلها، ص٢١٨.

(٥٥) الإسلام والحضارة الغربية، ص٢٥٧.

(٥٦) لغة سامية في سوريا وما يحيط بها من مناطق، سادت في القرون قبل المسيح -عليه السلام- وبعده. (الموسوعة العربية الميسرة، ص٢١٥).

(٥٧) لغة سامية، من عائلة اللغات الحامية السامية، تسمى أيضا الأشورية البابلية. كانت شائعة في بلاد ما بين النهرين القديمة منذ حوالي ٣٠٠٠ ق.م حتى زمن ظهور المسيح -عليه السلام-. (الموسوعة العربية الميسرة، ص٣٥٣).

(٥٨) لغة الهند الكلاسيكية النموذجية، كانت لغة الحديث في القرن ٤ ق.م. (الموسوعة العربية الميسرة، ص١٩٠٥).

(٥٩) العنصرية اليهودية، ٣/ ٥٤٥-٥٤٦.

(٦٠) المشترك الإنساني، ص٤٩٦.

(٦١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٣٢/ ٢٥٥.

(٦٢) وأما ما ورد من ذم نبينا عليه الصلاة والسلام الكلام بغير العربية، أو نهي عمر ﷺ عن ذلك؛ فهو مع عدم ثبوت إسناده محمول على من عرف العربية، ثم اعتاد الحديث بغيرها لغير حاجة. انظر: الأحاديث والآثار الواردة في فضل العربية، ص٢٤٣-٢٥٧.

(٦٣) المغني، ٢/ ١٣٠.

(٦٤) الإجماع، ص١١٣.

(٦٥) تهذيب مناهل العرفان، ص٥٢٦-٥٣٥.

المصادر والمراجع:

١- الأحاديث والآثار الواردة في فضل العربية وذم اللحن رواية ودراية، د. أحمد بن عبد الله الباتلي، كنوز إشبيليا، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

٢- أحكام الذكر في الشريعة الإسلامية، أمل بنت مُحَمَّد بن فالح الصغير، دار الفضيلة، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

٣- الإجماع، أبي بكر مُحَمَّد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت ٣١٨هـ)، حققه وقدم له: د. أبو حماد صغير أحمد الأنصاري، مكتبة مكة الثقافية، الإمارات، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

٤- الإسلام والحضارة الغربية، الدكتور مُحَمَّد مُحَمَّد حسين، دار الرسالة، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

٥- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق وتعليق: د. ناصر بن عبد الكريم العقل، دار العاصمة، الطبعة السادسة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي، ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن مُحَمَّد الشيرازي الشافعي البيضاوي (ت ٦٩١هـ)، إعداد وتقديم: مُحَمَّد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

٧- الإيمان الكبير، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: الشبراوي بن أبي المعاطي المصري، دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.

٨- البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي بدر الدين مُحَمَّد بن بهادر بن عبد الله الشافعي (ت ٧٩٤هـ)، قام بتحريره: عبد القادر عبد الله العاني، وزارة الاوقاف والشئون الإسلامية بالكويت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

٩- البدر الطالع في حل جمع الجوامع، لجلال الدين أبي عبد الله مُحَمَّد بن أحمد المحلي الشافعي (ت ٨٦٤هـ)، شرح وتحقيق: أبي الفداء مرتضى علي بن مُحَمَّد المحمدي الداغستاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م.

١٠- تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، دكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الحادية والعشرون.

١١- تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

١٢- التحرير والتنوير، مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

١٣- تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، أبي السعود مُحَمَّد بن مُحَمَّد العمادي (ت ٩٥١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

١٤- تفسير البغوي (معالم التنزيل)، أبي مُحَمَّد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ)، حققه: مُحَمَّد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة، الإصدار الثاني، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

١٥- التفسير البسيط، أبو الحسن علي بن أحمد بن مُحَمَّد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي (ت ٤٦٨هـ)، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

١٦- تفسير سورة الروم، مُحَمَّد بن صالح العثيمين، مؤسسة الشيخ مُحَمَّد بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٧- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، أبي جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

١٨- تفسير القرآن، أبو المظفر منصور بن مُحَمَّد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت ٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

١٩- تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين، أبي عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن أبي زمنين (ت ٣٩٩هـ)، تحقيق: أبي عبد الله حسين بن عكاشة ومُحَمَّد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

٢٠- تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: أبو إسحاق الحويني، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

٢١- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٢- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

٢٣- تفسير النسفي، أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٢٤- تنزيه القرآن عن المطاعن، أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد (ت ٤١٥هـ)، دار طلاب المعرفة.

٢٥- تهذيب مناهل العرفان في علوم القرآن، خالد بن عثمان السبت، دار طيبة الخضراء، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م.

٢٦- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٧- جامع البيان في تفسير القرآن، السيد معين الدين مُحَمَّد بن عبد الرحمن الحسيني الأيجي الشافعي (ت ٨٩٤)، قدَّم له وراجعه: صلاح الدين مقبول أحمد، غراس، الكويت، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

٢٨- الجامع لأحكام القرآن، أبي عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

٢٩- جمع الجوامع في علم أصول الفقه، لعبد الوهاب بن علي تاج الدين ابن السبكي (ت ٧٧١هـ)، دراسة وتحقيق: عقيلة حسين، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.

٣٠- حصوننا مهددة من داخلها، الدكتور مُحَمَّد مُحَمَّد حسين، دار الرسالة، الطبعة الثانية عشرة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
٣١- حياة السلف بين القول والعمل، أحمد بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.
٣٢- الحيوان، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، بتحقيق وشرح: عبد السلام مُحَمَّد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية.
٣٣- الخصائص، أبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.
٣٤- دراسات في فقه اللغة، الدكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة عشرة، ٢٠٠٤م.
٣٥- درة التنزيل وغرة التأويل، أبي عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ) دراسة وتحقيق وتعليق: الدكتور مُحَمَّد مصطفى آيدين، دار الفتح، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.
٣٦- الرسالة، للإمام مُحَمَّد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، حققه وضبطه وعلق عليه وقدَّم له: د. علي بن مُحَمَّد بن ونيس، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ.
٣٧- رسالة إلى أهل الثغر، أبي الحسن الأشعري، تحقيق ودراسة: عبد الله شاكر مُحَمَّد الجنيدي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.
٣٨- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، أبو فهر محمود مُحَمَّد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
٣٩- روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن علي بن الأزرق الحميري الأصبحي الغرناطي (ت ٨٩٦هـ)، تقديم وتحقيق: سعيدة العلمي، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
٤٠- الزنادقة عقائدهم وفرقهم وموقف أئمة المسلمين منهم، د. سعد بن فلاح بن عبد العزيز العريفي، دار التوحيد للنشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.
٤١- الشعوبية والزندقة وأثرهما في ظهور العقائد والفرق المنحرفة، الدكتور مُحَمَّد أحمد الخطيب، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
٤٢- كتاب الشكوك للرازي على كلام فاضل الأطباء جالينوس في الكتب التي نسبت إليه، تحقيق وتقديم: د. مصطفى لبيب عبد الغني، دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
٤٣- الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية، أبي الربيع نجم الدين سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي الصرصري الحنبلي (ت ٧١٦هـ)، الوعي الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.
٤٤- صفة الصفوة، جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، حققه وعلق عليه: محمود فاخوري، دار المعرفة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٤٥- الطلاق (مقاصده – أنواعه – ألفاظه – أحكامه)، د. عوض بن حسين مغرم الشهري، دار الهدي النبوي، مصر، ودار الفضيلة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م.
٤٦- العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها، الدكتور أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغيبي، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

٤٧- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير - دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٤٨- فصول في أصول لعلم اللغة العربية، ابن عوف عمر كوني المعروف بعبد الرحمن بن عوف كوني، دار الميراث النبوي، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م.
٤٩- فقه اللغة (مفهومه — موضوعاته — قضاياه)، محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
٥٠- فقه اللغة مناهله ومسائله، الدكتور محمد أسعد النادري، المكتبة العصرية، ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م.
٥١- في اللهجات العربية، دكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣م.
٥٢- الكشاف، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ)، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.
٥٣- لهجات العرب، أحمد تيمور باشا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
٥٤- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي وساعده ابنه محمد، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
٥٥- مدخل إلى اللسانيات، الدكتور محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
٥٦- المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، الدكتور يحيى وهيب الجبوري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
٥٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل، (ت ٢٤١هـ)، حققه وخرَّج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
٥٨- المشترك الإنساني، أ.د. راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.
٥٩- معتقد أهل السنة والجماعة كما نقله الإمام حرب بن إسماعيل الكرماني (ت ٢٨٠هـ)، تحقيق وتعليق: أ.د. سليمان بن محمد الدبيخي، مكتبة دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ.
٦٠- معجم الأفكار والأعلام، هتشنسون، ترجمة: خليل راشد الجيُّوسي، الفارابي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
٦١- المعرَّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، لأبي منصور الجواليقي موهوب بن أحمد بن محمد الخضر (ت ٥٤٠هـ)، بتحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث ونشره، الطبعة الثانية.
٦٢- المغني، موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الدمشقي الصالحي الحنبلي (ت ٦٢٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب، الطبعة الرابعة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
٦٣- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.
٦٤- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٦٥- المقابسات، لأبي حيان التوحيدي، محقق ومشروح بقلم: حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
٦٦- مقدمة في فقه اللغة، مُحَمَّد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
٦٧- المنتخب في تفسير القرآن الكريم، وزارة الأوقاف المصرية، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
٦٨- الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.
٦٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٧٠- النكت والعيون (تفسير الماوردي)، أبي الحسن علي بن مُحَمَّد بن حبيب الماوردي البصري (ت ٤٥٠هـ)، راجعه وعلق عليه: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية.
٧١- نيل الأرب في نظم لهجات العرب، نظمها وشرحها: د. عبد الله الطويل، دار طغراء للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ / ٢٠١٧م.
٧٢- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه، أبي مُحَمَّد مكي بن أبي طالب حموش بن مُحَمَّد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (ت ٤٣٧هـ)، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
٧٣- وفي أنفسكم أفلا تبصرون، الدكتور مُحَمَّد بن سعد الشويعر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.